وحقيقة الإمساك : القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت ولا يتفرق فمثل حال حفظ نظام السماوات والأرض بحال استقرار الشيء الذي يمسكه الممسك بيده ولما كان في الإمساك معنى المنع عدي إلى الزوال ب (من) وحذفت كما هو شأن حروف الجر مع (أن) و (أن) في الغالب لا وأكد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيق معناه وأنه لا تسامح فيه ولا مبالغة وتقدم عند قوله تعالى (ويمسك السماء) في سورة الحج . ثم أشير إلى أن شأن الممكنات المصير إلى الزوال والتحول ولو بعد أدهار فعطف عليه قوله (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) فالزوال المفروض أيضا مراد به اختلال نظامهما الذي يؤدي إلى تطاحنهما .

فالزوال يطلق على العدم ويطلق على التحول من مكان إلى مكان ومنه زوال الشمس عن كبد السماء وتقدم آخر سورة إبراهيم .

وقد اختير هذا الفعل دون غيره لأن المقصود معناه المشترك فإن ا يمسكهما من أن يعدما ويمسكهما من أن يتحول نظام حركتهما كما قال تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) . فا مريد استمرار انتظام حركة الكواكب والأرض على هذا النظام المشاهد المسمى بالنظام الشمسي وكذلك نظام الكواكب الأخرى الخارجة عنه إلى فلك الثوابت أي إذا أراد ا انقراض تلك العوالم أو بعضها قيض فيها لا طوارئ الخلل والفساد والخرق بعد الالتئام والفتق بعد الرتق فتفككت وانتشرت إلى ما لا يعلم مصيره إلا ا تعالى وحينئذ لا يستطيع غيره مدافعة ذلك ولا إرجاعها إلى نظامها السابق فربما اضمحلت أو اضمحل بعضها وربما أخذت مسالك جديدة من البقاء .

وفي هذا إيقاظ للبصائر لتعلم ذلك علما إجماليا وتتدبر في انتساق هذا النظام البديع .

فاللام موطئة للقسم . والشرط وجوابه مقسم عليه أي محقق تعليق الجواب بالشرط ووقوعه عنده وجواب الشرط هو الجملة المنفية ب (إن) النافية وهي أيضا سادة مسد جواب القسم .

وإذ قد تحقق بالجملة السابقة أن ا ممسكهما عن الزوال علم أن زوالهما المفروض لا يكون إلا بإرادة ا تعالى زوالهما وإلا لبطل انه ممسكهما من الزوال .

وأسند فعل (زالتا) إلى (السماوات والأرض) على تأويل السماوات سماء واحدة . وأسند الزوال أليهما للعلم بأن ا هو الذي يزيلهما لقوله (إن ا يمسك السماوات والأرض أن تزولا) .

وجيء في نفس إمساك أحد بحرف (من) المؤكدة للنفي تنصيصا على عموم النكرة في سياق النفي أي لا يستطيع أحد كائنا من كان إمساكهما وإرجاعهما .

و (من بعد) صفة (أحد) و (من) ابتدائية أي أحد ناشئ أو كائن من زمان بعده لأن حقيقة (بعد) تأخر زمان أحد عن زمن غيره المضاف إليه (بعد) وهو هنا مجاز عن المغايرة بطريق المجاز المرسل لأن بعدية الزمان المضاف تقتضي مغايرة صاحب تلك البعدية كقوله تعالى (فمن يهديه من عبد ا) أي غير ا فالضمير المضاف إليه (بعد) عائد إلى ا .

وهذا نظير استعمال (وراء) بمعنى (دون) أو بمعنى (غير) أيضا في قول النابغة : .

" وليس وراء ا للمرء مذهب وفي ذكر إمساك السماوات عن الزوال بعد الإطناب في محاجة المشركين وتفظيع غرورهم تعريض بأن ما يدعون إليه من الفظاعة من شأنه أن يزلزل الأرضين ويسقط السماء كسفا لولا أن ا أراد بقاءهما لحكمة كما في قوله تعالى (لقد جئتم شيئا إدا يكاد السماوات ينفطرن منه وتنشق الجبال هد) . وهذه دلالة من مستتبعات التراكيب باعتبار مثار مقامات التكلم بها وهو أيضا تعريض بالتهديد .

ولذلك أتبع بالتذييل بوصف ا تعالى بالحلم والمغفرة بما يشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم فإن التأخير من أثر الحلم وما تقتضيه صفة الغفور من أن في الإمهال إعذارا للظالمين لعلهم يرجعون كما قال النبي A " لعل ا أن يخرج من أصلابهم من يعبده " لما رأى ملك الجبال فقال له (إن شئت أن أطبق عليهم الأخشعين) .

الحسنتين بالصفتين الاتصاف لتقرر مفيد الجلالة ضمير عن به المخبر (كان) وفعل A E